

المحاضرة (٣):

المقالة

المقالة جنس أدبي حديث عرفتة الآداب الأوربية في أواخر القرن السادس عشر ويُعد الكاتب الفرنسي مونتيني (١٥٣٢-١٥٩٢) والكاتب الإنكليزي بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) رائدي المقالة الحديثة في الآداب الأوربية، وكان للصحافة دور كبير في نهضة وانتشار هذا الجنس الأدبي في العصر الحديث.

إن المقالة "قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تُكتب بطريقة عفوية سريعة، خالية من الكلفة والرهق، وشرطها الأول أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب"^(١).

ومن خصائصها التي يمكن استنتاجها من هذا التعريف الطول المعتدل والتشويق وبروز الطابع الذاتي فيها، والطابع العفوي الذي يبعدها عن التكلف والمنهجية.

ظهرت المقالة في أدبنا الحديث في القرن التاسع عشر نتيجة لاتصالنا بالغرب واطلاعنا على آدابه حيث تشكل المقال جنساً أدبياً مستقلاً ومُهماً، يقف إلى جانب الأجناس الأدبية الأخرى، ونتيجة لانتشار الصحف والمجلات في الوطن العربي.

إن تاريخ المقالة في أدبنا الحديث يرتبط بتاريخ الصحافة، فالمقالة لم تظهر في أدبنا جنساً مستقلاً شأنه في فرنسا وإنجلترا، بل نشأ في حضن الصحافة، وخدمت أغراضها المختلفة وحملت إلى قرائها آراء محرريها وكتابها.

أما الأدب العربي القديم، فقد عرف فناً أدبياً يشبه المقالة الحديثة، وهو فن الرسائل، ولاسيما الرسائل العلمية والإخوانية، فالرسائل العلمية التي تتناول موضوعاً واحداً بشيء من الإيجاز، ومن وجهة نظر كاتبها فيها بعض خصائص المقالة

(١) فن المقالة: محمد يوسف نجم. ص ١٥

الحديث في الأسلوب والموضوع، مثل رسائل الجاحظ في العشق واللصوص والنخيل.. الخ. ومثلها الرسائل الإخوانية التي تدور على المسامرات والمناظرات والأوصاف، وكان من الممكن ان تتطور هذه الرسائل وتكون بواكير المقالة العربية الحديثة، لو ما طرأ على النثر العربي خلال القرن الرابع الهجري والقرون التي تلت، ميل إلى الصنعة والتكلف والمحسنات والزخارف اللفظية التي أساءت أكبر إساءة إلى النثر العربي، وأعاق نمو وتطور موضوعاته وفنونه.

تاريخ المقالة العربية الحديثة وخصائصها:

ظهرت بواكير المقالة العربية الحديثة في مصر قبل غيرها من الأقطار العربية، وذلك لسبقها في النهضة وتأسيس الصحف والمجلات. وعلى العموم مرت المقالات التي شهدتها الصحف المصرية بأربعة أطوار وهي:

الطور الأول: ويشمل مقالات الصحف الأولى وهي الصحف الرسمية التي أصدرتها الدولة أو أعانت على إصدارها حتى قيام الثورة العربية، وأشهر من كتب المقالة في هذا الطور (رفاعة الطهطاوي، وعبد الله أبو السعود، وسليم عنجوري) وقد نشروا مقالاتهم في (الوقائع المصرية) و(وادي النيل) و(روضة الأخبار) و(مرآة الشرق).

كانت المقالة في هذا الطور، ولكونها تُمثل المحاولات الأولى في هذا الجنس الأدبي، بدائية وفجة فكان أسلوبها أقرب إلى أسلوب النثر في عصر تدهور الثقافة والأدب العربي من حيث الاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية والزخارف المتكلفة أما موضوعها الرئيس فيتمثل في الشؤون السياسية إلى جانب الشؤون الاجتماعية والتعليمية.

الطور الثاني: وهو الطور الذي شهد صحفاً جديدة غير مرتبطة بالدولة، أسس معظمها المهاجرون السوريون مثل (الأهرام) و (مصر) وغيرها.

شهدت صحف هذا الطور مقالات كتاب ارتبط تاريخهم بتاريخ الكفاح الوطني في مصر أمثال أديب إسحاق وسليم النقاش وعبد الله النديم ومحمد عبده وإبراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال وعبد الرحمن الكواكبي وبشارة نقلا، وامتازت مقالاتهم بالتححرر - إلى حدٍ كبي - من قيود السجع في الأسلوب، أما فيما يتعلق بالموضوع، فقد غلبت عليها الموضوعات الوطنية والاجتماعية المتأثر بروح التحرر والإصلاح.

الطور الثالث: وهو الطور الذي شهد مقالات صحف المدرسة الصحفية الحديثة التي أسستها الأحزاب السياسية التي شهدتها مصر في عهد الاحتلال مثل حزب الإصلاح الذي أسسه الشيخ علي يوسف وأصدر جريدة (المؤيد) والحزب الوطني الذي أنشأه مصطفى كامل وأصدر جريدة (اللواء) وحزب الأمة الذي كونه لطفي السيد وأصدر جريدة (الجريدة) وأهم الكتاب الذين حرروا هذه المقالات علي يوسف ومصطفى كامل ولطفي السيد وعبد العزيز جاويش وولي الدين يكن ومحمد رشاد رضا و خليل مطران.

لقد اتجهت مقالات هذا الطور اتجاهات مخلفة، منها ما هو سياسي بحث ومنها ما هو علمي وتربوي، أما الأسلوب فقد تخلص كلياً من قيود الصنعة والسجع، وأصبح حراً وبسيطاً يُعنى أساساً بالأفكار والمعاني.

الطور الرابع: وهو الطور الذي بدأ مع قيام الحرب العالمية الأولى وما تلاها من أحداث أثرت تأثيراً كبيراً في الحياة المصرية، وفي الشخصية المصرية، وأهمها ثورة ١٩١٩، ولعل أهم الصحف التي ظهرت في هذا الطور وأثرت في تطور المقالة، جريدة (السفور) و(السياسة) و(كوكب الشرق) و(المعري) وغيرها، وأشهر من حرر فيها طه حسين ومحمد حسين هيكل وإبراهيم المازني وعباس محمود العقاد.

امتازت المقالة في هذا الطور بالتركيز والدقة العلمية والميل إلى بث وإشاعة الثقافة العامة وأسلوبها هو الأسلوب الحديث الذي اشتهر به هؤلاء الكتاب العمالقة الذين هم أقطاب الأدب والفكر العربي الحديث.

وفي الوقت ذاته أصبح للمجلات، ولاسيما المجلات الأدبية، دور مهم في تطوير المقالة **وتسيع** آفاقها، إذ شهدت مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر مجلات عُنيّت عناية كبيرة بالمقالة مثل (المقتطف) حين تولى تحريرها فؤاد معروف، (الهلال) و(السياسة الأسبوعية) و(البلاغ الأسبوعي) و(الرسالة) لأحمد حسن الزيات الصادرة في عام ١٩٣٣، و(الثقافة) و(الكاتب المصري) و(الكتاب)... الخ.

لقد احتضنت هذه المجلات أنواع المقالة من ذاتية وموضوعية، وخلقت طبقة من الكتاب الذين عنو بفن المقالة وجعلوها الوسيلة الأولى لنقل أفكارهم وإذاعة آرائهم.

وفي لبنان نهضت المقالة نتيجة لظهور عدد كبير من الصحف الأهلية فيه، تلك الصحف التي حررها كتاب يُعدّون رواد المقالة العربية في لبنان أمثال يحيى خليل الخوري وبطرس البستاني وإبراهيم سركيس وعبد القادر القباني وليس صابونجي وغيرهم، أما الطائفة الثانية من الكتاب فقد ظهرت بعد إعلان الدستور العثماني حيث تطورت الحركة الصحفية أمثال بشارة الخوري وجرجي شاهين عطية وفيلكس فارس وعبد الغني العريس، وامتازت هذه الطائفة بازدياد حظها من الثقافة والحرية، لذا تطورت المقالة الصحفية بفضلهم تطوراً كبيراً.

أما الطائفة الثالثة فبرزوا بعد الحرب العالمية الأولى في عهد الاحتلال الفرنسي بين مؤازر ومحاييد ومعارض، وأشهرهم جبران التويني وميشال زكور وعبد الله مشنوق وعمر فاخوري وغيرهم.

أما في العراق فقد مرّت المقالة في تطورها بثلاث مراحل هي:

١- مرحلة العهد العثماني شهدت هذه المرحلة بعض الرسائل الساذجة والبعيدة عن الشؤون والمشكلات الحياتية المهمة، وأسلوبها هو الأسلوب المسجوع والحافل بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية، ولعلّ هذا يعود إلى عُزلة العراق عن العالم وتخلفه الثقافي وتأخر **ظهور** الصحافة فيه.

لكن الحال تتغير في أعقاب إعلان الدستور العثماني في ١٩٠٨ حيث تُطلق الحريات فترة من الزمن وتنشأ صحف ومجلات متنوعة، ممّا يؤدي إلى تطور المقال نحو البساطة في الأسلوب ونبذ الأسلوب المتكلف والتعبير عن موضوعات سياسية واجتماعية تتعلق بأغلبية الناس مثل الدعوة إلى الحرية ووصف مساوئ الاستبداد والدعوة إلى مكارم الأخلاق واستقلال العرب.

٢- مرحلة الاحتلال البريطاني حيث كُتِر كتاب المقالة نتيجة لتشجيع الإنكليز الكتاب للعمل في الصحف التي أنشأوها. امتازت المقالة في هذه المرحلة بالسهولة في الألفاظ والوضوح في الأفكار ومن حيث الموضوع غلب عليها وصف العلاقات بين العرب والأتراك والعلاقات بين العرب والإنكليز، والإشادة بوصفهم منقذين للعراق من الظلم العثماني.

٣- عهد الحكم الوطني الذي يبدأ عام ١٩٢١ حيث **تزغت** المقالة إلى مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية والثقافية وأهمها السعي إلى توعية الشعب وتوجيهه إلى حب الاستقلال والحرية والعمل، ولهذا مالت المقالة، من حيث الأسلوب، إلى السهولة والألفاظ السلسة ليفهمها الجميع، ومن أهم كُتاب المقالة في العراق في هذه المرحلة طه الراوي ومحمد مهدي البصير ومحمد رضا الشبيبي وفهمي المدرس وإبراهيم صالح شكر وغيرهم. وفيما يأتي دراسة لبعض أعلام المقالة العربية الحديثة.